الباب الأول

مع النفس

تمهيد

يحتوي الباب الأول **مع النفس**، على أربعة فصول: فصل **في رحاب التفسير**، وفيه تفسير سورتي النبأ والنازعات، وفصل **من رحيق السيرة** فيه عرض لسيرة النبي ﷺ من الميلاد وحتى الهجرة، ثم فصل **من جواهر العلم** وفيه خلاصة معظم فقه الطهارة، ونختم بفصل **من حصاد الفكر**، وفيه نعني بتعريف عام بالإسلام، ونخصصه في هذا الجزء للمعنى الديني.

أما **في رحاب التفسير**، فنعيش فيه أولاً مع تفسير **سورة النبأ**، ومنه نعرف أن اليقين باليوم الآخر أمر يتفق مع تفكير العقل السليم، وأن الجزاء بعد البعث يوم القيامة هو الذي يجعل للحياة الدنيا قيمة، وتُظهر السورة قدرة الله في خلق السماوات والأرض وما أودع فيهما من نعم؛ فنزدادَ شعورًا بفضل الله ﷻ وحبًّا له، والسورة تقرر حتمية الحساب والجزاء؛ فتشتاق نفوس التقاة إلى نعيم لا كدر فيه فتعمل ما يؤدي إليه، أمَّا معرفة أن الطغاة مآلهم إلى جحيم ليس له نهاية فتشفي صدور المظلومين والمستضعفين، وتُخَوِّفنا من مثل هذا المآل لنعتزل موجباته، و يُنَبِّه عرض أهوال يوم القيامة قلوب الغافلين، ويُشْعِرُ مشهد خشوع الملائكة وصمتهم في حضرة الرب الجليل بعِظَم الأمر، ومَن يدرس هذه السورة يتفكر كثيرًا في نعم الله عليه، ويحرص على تبشير التقاة والمظلومين بالنعيم الموعود وطمأنتهم بهلاك الطغاة الظالمين.

ونعيش أيضًا مع **سورة النازعات**، فنعرف من دوام انشغال ودقة وجدية الملائكة، حتمية وجدية البعث والمحاسبة، فنلتفت إلى ما ينفعنا

حينئذ، ونعلم كيف ستتداعى الأحداث المحيطة لقيام الساعة، فتستفيق قلوبنا رهبة تمنع جوارحنا من ارتكاب ما يغضب الله، كما نطالع نموذجًا لسُنّة الله في إمهاله الظالمين وعدم إهماله محاسبتهم، وذلك من خلال قصة فرعون المخادع لقومه المخدوع بهم، فتطمئن قلوبنا إلى تحقق عدل الله ، ولتُثَبِّت بذكرها مَن ينتظر الإنصاف، والسورة تُبَيِّن للإنسان حقيقة حجمه الضئيل في هذا الكون الفسيح، وأن مصيره رهن عمله، بعد دنيا قصيرة تعقبها قيامة قريبة

وفصل **من وحي السيرة**، يُبيّن أن بعثة الرسول ﷺ كانت مُتوقعة ومُنتظرة، وأن الدعاة المؤثرين يصطفيهم الله ﷻ من الشرفاء أصحاب المكانة والنجابة، مرفوعي الرأس بالاستقامة، إيجابيين نافعين لقومهم، متعففين عمًّا في أيدي الناس، يأكلون من عمل أيديهم، ويصونون قلوبهم وأرواحهم بخلوات يحاسبون فيها نفوسهم

وتتضح معالم منهج الله ﷻ في إعداد الدعاة بتحلية تزيل حظ الشيطان، وبتزكية تحافظ على الفطرة وتنمي المشاعر، وبتعظيم شأن الدعوة في قلب ونفس الدعاة، فيتألمون إذا عَنَّ لهم فتور، ويصبرون إذا لاقوا متاعبًا

ومواقف السيدة خديجة –رضي الله عنها– وخالها ورقة، ثم قريش بعد ذلك توضح أن الأبرار لا يخزيهم الله ولا يخذلهم، وأن مقاومة دعاة الحق عادة بشرية، وأن الابتلاء سنة الدعوات، وهو يطُول قيادة الدعوة كما يطُول صفها، فهو فرز وتمحيص وتربية وإعداد

ونتعلم من قيادة رسول الله ﷺ للمؤمنين دروسًا في تثبيت الصف وبعث الأمل، ورفض الاستدراج إلى مواجهات لا جدوى منها، وفن الموازنة بين مصلحة الدعوة وتأمين أفراد صفها، بالسعي الدائب لزرع الدعوة في ميادين جديدة أو بديلة، والحرص على الانتقاء للدعوة مَن يُضيف إلى أسباب عزها

والباطل يعتمد دائمًا على السفهاء والحمقى، ورغم ما يتسبب فيه هؤلاء من مِحَن إلا أنها لا تخلو من مِنَح، نتعلم ذلك من قصة الطائف وإسلام الغلام عَدَّاس

والداعية الهادي لا يحقد على الناس ولا ينتقم منهم انتقامًا عشوائيًّا، وإن دعا على الطغاة الذين آذوه بأشخاصهم، فإنه يستبقي نفسية سليمة صحيحة مُقبلة تجاه عموم العاصين، بل يرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مهتدين

أمَّا حادثة الإسراء والمعراج، ففيها تطبيق عملي للثقة التي تحلَّى بها أبو بكر الصديق ﷺ، وبها إشارة واضحة لأهمية الصلاة بين الشعائر، ونموذج رائع لكرم الله ﷻ وفضله، كرمٌ جعل ثواب الصلوات الخمس خمسين، وفضلٌ جعل كل حسنة بعَشْر أمثالها، وبذلك يثقل ميزان الإنسان بالحسنات وإن كانت تلك الحسنات عُشر أعماله فقط.

ومن دروس الهجرة ومرحلة التأسيس نخص بالذكر أهمية الأخذ بالأسباب، واستصحاب معية الله ﷻ، ثم ندرك أهمية المسجد كمؤسسة جوهرية في بناء المجتمع المسلم.

والفصل الثالث **من جواهر العلم**، تركيزه في هذا الجزء على فقه

الطهارة، وقد تحرّيا ربط كل حكم بالحديث الصحيح الذي يؤيده، حتى يشعر القلب بمعية الوحي في كل تصرف عملي، ولتكون الآية الكريمة أو الحديث الشريف رادًا ومرتكزًا لكل من يبحث عن الثواب في تتبع الحكم الشرعي لغيره

والفصل الرابع **من حصاد الفكر**، يعتني بالتعريف بدين الإسلام، وفي هذا الجزء يقتصر على معنى الدين كما بينه القرآن الكريم وشرحته السُّنَّة الشريفة، ليوقن أن كل دين منهج وكل منهج دين، وبذلك لا نقبل أن تستولي أفكار بشرية على مقدرات أحد مجالات عمل الإسلام فتقصي الإسلام عنها

ثم نحاول أن نقضي على السلبية والتواكل بترسيخ معنى أن دين الله ﷻ - وهو الأولى بالاتباع - لا يقوم إلا بمجهد البشر، مع توفيق وتأييد من الله ﷻ

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا علمًا نافعًا

*****

الفصل الأول

في رحاب التفسير

١- سـورة النبـأ

٢- سورة النازعـات

١- سورة النبأ

سُورة النبأ سُورة مَكّيّة[١]، والنبأ هو الخبر، فالسورة بها أخبار عن القيامة والبعث والنشور والحشر والسؤال والفصل والجزاء، وهي تعرض لمسائل في العقيدة طالما أنكرها المشركون، كما تقيم الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، من خلال سرد آيات قدرته وخلقه في الكون

يقول الله ﷻ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾

أمر مهول ووعيد مرعب:

تُفْتَتَح السُورة بسؤال فيه استنكار وتعجب، سؤال يشير إلى عِظَم وهَوْل الأمر الذي أهمَّ الناس وشغلهم، إنه أمر البعث بعد الموت، وهو أمر اختلفوا فيه، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ولسوف يعلم المُكِرون حقيقة هذا الأمر، سيعلمونها أولا حين يموتون، ثم سيعلمونها أخيرًا حين يرون يوم القيامة من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون، وفي هذا ما فيه من الوعيد والتهديد والزجر

ويقول الله ﷻ

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾

قُدرة الله ﷻ تتجلى:

عرض القرآن الكريم الواقع الذي نعايشه قبل أن يُفصِّل الحديث عن

---

١ - السورة المكية هي التي نزلت قبل الهجرة مهما كان مكان نزولها

النبأ العظيم، فلفتت السورة النظر إلى آيات تدل علـــى قـــدرة الله ﷻ، فهذه الأرض ممهدة بفضل الله صالحة لإيوائنا واستقرارنا، وتلك الجبـــال راسية ثابتة بأمر الله، تحمي الأرض من أن ترتج أو تميد، ومن حكمة الله ﷻ أن خلقنا على صنفين، ذكر وأنثى، ليكون هذا سببًا مـــن أســـباب عمران الكون وبنائه

ويقول الله ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَـــا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنـــزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

المفردات.

﴿سُبَاتًا﴾ راحة وسكونًا ﴿لِبَاسًا﴾ سترًا يغطيكم بظلامه

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ السُّحُب ﴿ثَجَّاجًا﴾ مُنصبًّا كثيرًا

نعم الله ﷻ تغمرنا.

من نعم الله ﷻ علينا نعمة النوم الذي يقطع حركتنا لتحصـــل بـــه الراحة، ونعمة الليل الذي هو لنا كاللباس يغشانا، وظُلمته تُخفينا إن أردنا فَحذًا، وعَتمته تغطينا إن أردنا سِترًا، أما نعمة النهار ففيها يتيسر معاشـــنا وسعينا الذي من خلاله نتمتع بعديد من النعم والمكاسب، ولقد رفع الله ﷻ فوقنا سقفًا محكمًا، إنها السماوات السبـــع، الشـــديدة في اتســـاعها وارتفاعها وتزينها بالنجوم والكواكب، ولقد حوت تلـــك الســـماوات مزيدًا من النِّعَم، مِن شمس جمعت بين النور والحرارة، فهي مضيئة متوقدة،

وسُحُب تحمل ماء الغيث الذي ينـــزل بكثرة فيخرج به كل نبات تقتات به الكائنات، ولنا منه زيادة على القوت بساتين متشابكة أغصانها، نجـــني منها ثمارًا نتفكه بها.

ويقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّـــورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَـــتْ أَبْوَابًـــا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

المفردات:

﴿الصُّورِ﴾: بوق ينفخ فيه الملك إسرافيل يوم القيامة.

الحساب واقع لا محالة:

كانت الدنيا للعمل، وكانت النِّعَمُ متاعًا، ومن وراء كـــل ذلـــك حســـاب وجزاء، ويكون ذلك في يوم الفصل، اليوم الذي يُفْصَلُ فيه بين العباد، بين المحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، إنه للموعد المحدد للقضـــاء والجزاء، يومها يَنفخ المَلَك إسرافيل نفخته الثانية في بُوقه فيقوم الموتى من قبورهم أحياء، سواء منهم مَن صُعِقَ عند نفخة إسرافيل الأولى ومَن مات قبل ذلك بكثير، كل أولئك تحشـــرهم الملائكـــة وتســـوقهم إلى ربهـــم جماعات، يومها تتفتح السماء وتتشقق، فتكون أبوابًا وطُرُقًـــا ومســـالك للملائكة، وتُنسَفُ الجبال فتصير كالسراب، ويظن الناظر إليها أنها شيء، وما هي بشيء.

ويقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾

المفردات

﴿أحقابًا﴾ دهورًا وأزمنة طويلة ﴿حَمِيمًا﴾ ماء حارًا

﴿وغَسَّاقًا﴾ وصديدًا

جحيم الطغاة ليس له نهاية

يمضي السياق خطوة وراء الحشر، فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة، أما الطغاة الذين كذبوا وجحدوا بآيات الله فجهنم مرصودة لهم ترقب وصولهم إليها، فهي مأوى المتجاوزين لحدود الله ﷻ ومنزلهم الذي إليه يرجعون، ولهم - والعياذ بالله - في هذا المنزل مُقام طويل لأزمنة مديدة، ليس لهم فيها ما يُبَرِّدُ جوفهم، ويروي عطشهم، فإن أرادوا شرابًا فليس لهم إلا الماء الحار الذي يشوي البطون، الذي يُذاب فيه خليط من صديدهم ودموعهم وعرقهم وإخراجاتهم، وكل ذلك ما هو إلا الجزاء الموافق لطغيانهم والمناسب لما ارتكبوه من فساد وإفساد في الحياة الدنيا، وقد كانوا في الدنيا يستبعدون ذلك ولا يتوقعون أنهم سيحاسبون، بل كانوا معاندين متغافلين عن حجج الله ودلائله على خلقه، ومكذبين لآياته المنزلة على رسله، كل ذلك أحصته عليهم الملائكة وكتبته في

صحائفهم، فهم في جحيم مقيم لا رجاء لهم ولا أمل لهم في تخفيف عذابه

ويقول الله ﷻ

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾

المفردات

﴿وكَوَاعِب﴾ الكاعب هي المرأة التي برز ثدياها واستدارا

﴿أترابًا﴾ مماثلات في السن ﴿دهاقًا﴾ ممتلئة

نعيم التقاة لا كَدَر فيه.

المشهد المقابل لمشهد الطغاة في الجحيم، هو مشهد التقاة في النعيم، يفور المتقون بالجنة، ويتمتعون بساتينها وأشجارها، ويتروحون فيها بنسوة عذارى بالغات، مستويات الخلقة، في سنٍّ واحدة، يُعرَف جمالهن وصحتهن من استدارة أثدائهن وعدم تهدلها، وللمتقين في الجنات شراب طيب يملأ الكئوس، ولا يتسلل إلى مسامعهم الكذب ولا أي كلام غير مفيد، لقد جزاهم الله بفضله وإحسانه عطاءً كافيًا وافيًا كثيرًا

ويقول الله ﷻ

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ

صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾.

في حضرة الرب الجليل:

الرب هو الذي يصلح الشيء حتى يبلغ به التمام والكمال، والرحمن ﷻ هو المصلح لكل ما في الكون، كل ما في أعلاه وكل ما في أسفله، وكل ما بين أعلاه وأسفله، أحسنَ كل شيء خَلْقَه وأتقن كل شيء صَنْعَه، وخشعت لكبريائه رقاب الجبارين.

ويأتي المشهد الختامي بوقوف جبريل عليه السلام في حضرة الله ﷻ والملائكة صفًّا بين يدي الرحمن خاشعين لا يتكلمون إلا من أُذن له، فلا يتدئ أحد بالكلام إلا بإذنه، ومن يتكلم يومها فلن يطق إلا بالحق، فذلك هو اليوم الحق الكائن لا محالة، فجدير بكل منا أن يسلك الطريق الذي يؤدي إلى رضا ربنا يوم نعود إليه، وإلا فليس أمامنا إلا الندم.

ويقول الله ﷻ:

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾

قمة الندم وتمني العدم:

من لم يُرضِ ربه سوف يندم بين يدي الله يوم القيامة أشد الندم، حتى أنه سيتمنى العدم، سيتمنى أن يصير ترابًا مثل البهائم؛ لئلا يُعَذَّب،

ويوم القيامة قريب جدًّا، فمن مات انقطع عمله، وهو بمثابة مَن قامت قيامته، ليس بينه وبينها سوى مضي زمن قصير، فَمَن أَخَّلَ مِنَّا الطاعة وهو ينوي أن يؤديها قبل أن يموت، فعليه أن يعرف متى يموت! فإن لم يعرف فليبادر بها قبل ألا يسعه سوى تمني العدم.

*****

٢- سورة النازعات

سُورة النازعات سُورة مكية يدور محورها حول الحديث عن بعض ما عهد الله ﷻ به إلى الملائكة، وعن القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وبدأ موسى عليه السلام مع فرعون، والتذكير بعظمة الخالق الذي أتقن كل شيء صنعًا، مع بيان مصير الطغاة المتكبرين ومآل الخائفين الراجين

يقول الله ﷻ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾

المفردات

﴿والنَّازِعَات﴾ الملائكة التي تقبض أرواح الكافرين

﴿غرقًا﴾ نزعًا شديدًا

﴿والنَّاشطات﴾ الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين

﴿والسَّابحات﴾ الملائكة التي تسبح في الكون

﴿فالسَّابقَات﴾ الملائكة التي تسارع لتنفيذ أوامر الله ﷻ

﴿فالمدَبِّرَات﴾ الملائكة التي تُدَبِّر وتتولى ما يأمرهم به الله ﷻ

ملائكة في شغل عظيم

تبدأ السورة بمطلع عاصف، وهو يثير بعمومه شيئًا من الرهبة والتوجس، يسوقه الله - تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه - في إيقاع تكاد تنقطع به الأنفاس من الذعر، نحس هذه المشاعر ونحن نتابع ذكر

ملائكة تسرع أرواح الكفار سرعًا شديدًا، وملائكة تسرع أرواح المؤمنين في سهولة ويسر، وملائكة تسبح في العوالم العليا، وملائكة تسوق للإيمان والطاعة، وأخرى تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها

ويقول الله ﷻ

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾

المفردات

﴿الراجفة﴾ النفخة الأولى في الصور

﴿الرَّادِفة﴾ النفخة الثانية في الصور

﴿واجفة﴾ خائفة

﴿الحافرة﴾ القبر

﴿نَخِرَة﴾ بالية مُفَتَّتة

﴿كَرَّة﴾ رجعة وعودة

﴿زَجْرَة﴾ نفخة وصيحة

﴿بالسَّاهِرَة﴾ بأرض المحشر

صيحة صاعقة.

وتبدأ الأهوال، فتكون النفخة الأولى في بوق إسرافيل فترتعد لها الأرض والجبال والأحياء جميعًا فيُصعَقون إلا من شاء الله، وتنشق السماء الأرض في انقلابها، فتشقق وتتناثر كواكبها وتبقى على هذه الحال إلى أن يجيء أوان النفخة الثانية

بعث مذهل:

ثم يُبعث الموتى فيحرجون من قبورهم، هائلة تضطرب القلوب ويجتمع عليها الخوف والانكسار، فلقد أصاب أصحابها الذهول حين رأوا أنهم إلى الحياة يعودون، وتوهموا أنهم راجعون لحياتهم الأولى، وتعجبوا أن يكون ذلك بعد أن صاروا عظامًا هشة، فلما تيقنوا أنها الحياة الآخرة التي لم يحسبوا حسابها ولم يقدموا زادها، علموا أن ليس لهم فيها إلا الخسران المبين، فالنفخة الثانية تصدر صيحة يُحشر بها الناس جميعًا على الساهرة، التي هي أرض المحشر، وهي أرض بيضاء لامعة

ويقول الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾

المفردات

﴿طُوًى﴾ اسم وادٍ في سيناء ﴿تَزَكَّى﴾ تتطهر من الخطايا

﴿الآية الكُبْرَى﴾ انقلاب العصا حية، والآية العلامة

﴿أَدْبَرَ﴾ أعرض وتولى ﴿نَكَال﴾ عقابًا وجزاءً

فرعون المخدوع

كانت علاقة فرعون بقومه خداعًا متبادلاً، خدعهم بكلمة قالها أولاً حين زعم أنه ما علم لهم من إله غيره، واخدع هو بغفلتهم وانقيادهم وخوفهم ودلهم حتى بلغ به أن قال لهم إنه ربهم الأعلى، وبين الكلمة الأولى والآخرة تعصي سُنَّةُ الله ﷻ في أنه يمهل ولا يهمل، فقد كَلَّفَ الله ﷻ موسى عليه السلام يوم كلّمه بالوادي المسمَّى طُوى، أسفل جبل طور سيناء، كَلَّفَه بأن يذهب إلى فرعون الذي طغى وتجبر وجاوز الحد، وكان إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون نموذجًا للإمهال، لأنه أُمِرَ بالتبليغ الجَدَّاب، أُمِرَ أن يساعده بأن يسأله هل لك رغبة في التطهر من الذنوب والآثام؟ ليسهل له التعرف على طريق طاعة الله وتقواه

فلما رفض فرعون وأبَى إلا الكفر بالله، قَلَبَ الله عصا موسى حية، آية من عنده، لكن فرعون جحد هذه الآية، لقد ولّى هاربًا من الحية، ثم اتهم موسى عليه السلام بأنه ساحر،، وجمع السحرة والجنود والأتباع وخطب في الناس بوقاحة مليئة بالغرور، فقال كلمته الآخرة، قالها الطاغية مخدوعًا بعملة جماهيره وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء بقدر ما تخدعهم عملة الجماهير ودُلها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك -في الحقيقة- قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذليلة، تُعطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيَحزّ! وتُحني له رءوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغَى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم، فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف

والملايين لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها، وكل فرد هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعهم فيوهمهم أنه يملك لهم شيئًا، ولا يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، ولا يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، ولا يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًّا ولا رشدًا

يُمهِلُ ولا يُهْمِل

وعندما ادَّعى فرعون لنفسه الربوبية انتهى وقت الإمهال، وجاء وقت الكمال، وقت العقوبة، عقوبة الدنيا بإغراقه، وعقوبة الآخرة بإحراقه، وقال ابن عباس عاقبه الله جزاءً لكلمته الأولى التي حكاها القرآن على لسانه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1]، وجزاء لكلمته الآخرة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾.

وهذه القصة عبرة وعظة، فهي توضح أن الله عندما يُمْهِل الظالم ويرشده إلى طريق الرشاد فيزيغ عنه فإنه لا يُهْمِلُه، وإذا أخذه لم يُفْلِته، والذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، وأما الذي لا يحتفي فيه وبين العبرة حاجز والعياذ بالله

ويقول الله ﷻ

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا *

---

١ - من الآية ٣٨ من سورة القصص

وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾

المفردات:

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ جعلها عالية مرتفعة ﴿وأَغْطَشَ﴾ أظلَمَ

﴿دَحَاهَا﴾ هيَّأها وأعَدَّها ﴿أَرْسَاهَا﴾ أثبتها في أماكنها

على الإنسان أن يعرف حجمه:

يعود الحديث مخاطبًا المشركين المغترين بقوتهم - بعد أن تبينوا مصارع الطغاة - باستفهام للتقريع والتوبيخ هل أنتم - يا معشر المشركين - أشق وأصعب خلقًا من خلق السماء العظيمة؟! تلك التي جعلها الله ﷻ عالية البناء مستوية الأرجاء، وجعل ليلها مظلمًا ونهارها مشرقًا، أم أشدّ من تلك الأرض التي بسطها ومهدها وهيأها لإنبات الزرع، وثبتها بالجبال ليتمتع بها الإنسان والأنعام؟!

ويقول الله ﷻ:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

المفردات

﴿الطَّامَّة الكُبْرَى﴾ الداهية الهائلة، وهي القيامة ﴿بُرِّزَتْ﴾ أُظهِرَت
﴿آثَرَ﴾ فضَّل ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى
قيامها؟.

مصير على حسب العمل

عندما تحل الداهية العظمى بحدوث القيامة، يقرأ كل إنسان ما في كتابه فيتذكر ما فعل من خير ومن شر، وعندئذ تظهر الجحيم لمن يستحقها، ويصير كل إنسان إلى مصيره على أساس ما قَدَّم من عمل، فمَن جاوز الحد بِكُفر أو طغيان، وفضّل الدنيا على الآخرة، فإن منزله ومرجعه إلى جهنم، وأما مَن خاف عظمة الله، واستعد للحظة الوقوف بين يديه، ومنع نفسه عن الشهوات والمعاصي، فإن منزله ومرجعه إلى الجنة والنعيم.

علامة السعادة وعلامة الشقاء.

وبذلك كشفت الآيات الكريمة عن الميزان الدقيق الذي يعرف به الإنسان نفسه: هل هو من أهل الجنة السعداء، أم من أهل النار الأشقياء، ذلك أن مَن طغَى وبغَى وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المُعَذَّب بالجحيم، ومن أطاع الله العظيم واتقاه وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه ، فهو السعيد المُكَرَّم في دار النعيم، فليضع كل إنسان نفسه على هذا الميزان، قبل حلول الداهية العظمى

ويقول الله ﷻ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾

دنيا قصيرة وقيامة قريبة

يسأل المشركون محمدًا ﷺ متى تقوم الساعة؟ لكنه ﷺ لا يعلم موعدها، فهو عيب استأثر الله ﷻ بعلمه، ومرجعها إليه وحده، وما على الرسول ﷺ سوى الإنذار بها، ويكفي بني آدم أن يدركوا أنّ هذه الدنيا قصيرة مهما طالت حياة الفرد فيها، أحداثها ستبدو أمام أحداث الآخرة كأنها ساعة من ليل أو ساعة من نهار، أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟!

*****